

عظيم دولة الموحدين

عبد المؤمن بن علي

نشأته - خلقه - أديبه

لله أسنان محمود البسيطي

المدرس بدار المعلم

تمهيد

قامت دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين بالمغرب ، وإنما عرفت بهذا الاسم لأنها نشأت على أساس فكرة دينية خاصة تخالف فكرة (المرابطين) ؛ فإن هؤلاء كانوا يتخرجون من البحث في العقائد ، فلا يسمحون بالجدل ، ولا يرحمون من يخوضون في المسائل الكلامية أو يشيرون جدلاً في العقائد ؛ وإنما همهم الرابطة في الثغور ، والتمسك بظواهر النصوص الدينية لا يبتغون عنها حولا ، ويرون فيها السلامة والنجاة من الزلل ، ولذلك أصاب كتب الغزالي في عهدهم ما أصابها من المصادرة ، حتى كان اقتناء كتاب منها أو التحدث برأى فيها جريمة قد تؤدي إلى الهلكة أو السجن واستصناء المال^(١)

(١) حصل ذلك في عهد أمير المسلمين (علي بن يوسف بن تاشفين) المرابطي الذي تولى عام ٩٣٤ هـ ، ولكنه مع تمصبه وشدة كراهيته لأهل الجدل والرأى لم يعمل بمشورة (مالك بن وهب) أحد علماء دولته الذي أشار عليه بقتل (محمد بن تومرت) عقب المناظرة التي عقدت في مجلس الخليفة بين ابن تومرت وجهوز من العلماء ؛ فقبض قال (مالك) : إن ابن تومرت رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن وقع هذا في بلاد المضامدة نار علينا منه شر كثير ، وأشار بقتله ؛ فتوقف (علي بن يوسف) وقال : (علام تأخذ رجلا من المسلمين نجته ولم يتعين لنا عليه حق ، وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكننا نأمره أن يخرج من البلد وليتوجه حيث شاء) فتوجه (ابن تومرت) ومن معه إلى مدينة (سوس) وفيها ظهرت دعوته ؛ وليس عجبا أن يفتى (مالك) هذا بما أفتى وهو ممن يشاركون في الفلفة ، فإنه متأثر بروح العصر ، حريص على إرضاء الخليفة لا يظهر معه علومه إلا ما تروج سوقه في ذلك الزمان

فلما قامت (دولة الموحدين) كان لها رأى غير ما يراه (الراباطون)، إذ كانت آراء (أبي الحسن الأشعرى) قد ملأت رموس القادة والمؤسسين لهذه الدولة، ومذهب الأشاعرة مبنى على الرأى، وللجدل الدينى المنطقى فيه نصيب كبير، على أن شيخ هذه الدولة (محمد بن تومرت) لم يكن يقف فى مسائل العقائد عند آراء الأشاعرة، بل زاد عليها الأخذ بيمض آراء المعتزلة: كنفى صفات المانى، وظاهر أن مبنى هذا الرأى عند القائلين به، إثبات الوجدانية لله على أكمل وجوهها، ونفى كل مظان التعدد، لاعتقادهم أن القول بصفات المانى وهى قديمة يقتضى تعدد القداى.

من أجل ذلك أطلق المعتزلة على أنفسهم لقب «أهل التوحيد» وأخذ عنهم (الشيخ بن تومرت) هذا اللقب، وأطلقه على الدولة التى كان له الفضل فى تأسيسها (دولة الموحدين)

١ - كيف قامت دولة الموحدين؟

لما اضطرب أمر الرابطين فى بلاد الأندلس والمغرب، ظهر سنة ٥١٥ هـ بمدينة (سوس) من بلاد المغرب الأقصى شيخ من البربر كان ينتسب إلى الحسن ابن على كرم الله وجهه يسمى (محمد بن عبد الله بن تومرت) أخذ العلم عن علماء الشرق: كالغزالي (بالشام)، وأبى بكر الشاشى من علماء الفقه وأصول الدين (ببنداد) وكان ذا دهاء عظيم، ونفوذ روحى كبير، فقام يدعو إلى الله: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان سبباً فى نشر مذهب الأشاعرة ببلاد المغرب، فالتف حوله جماهير المصامدة^(١) ووجوههم وجعل يكثر من ذكر المهدي المنتظر، ثم ادعى أنه ذلك المهدي ورفع نسبه إلى آل البيت فانقاد له الناس، وما زال يحرض المصامدة على حرب الرابطين بمراكش ويبرهمهم بأنهم سيملكون ملك فارس والروم، حتى قويت شوكته، وكثر جنده؛ فقاموا معه لحرب الرابطين، وأمر على الجيش (عبد المؤمن ابن على) ولقبه بأمر المؤمنين، ثم دامت الحرب بين الفريقين حتى انتهى الأمر

(١) المصامدة ولتونة: جذمان عظيمان من البربر

باحتلال أحوال المرابطين ، وشهد (ابن تومرت) مصيرهم قبل موته سنة ٤٤٣ هـ .
 قام بالأمر بعده أمير المؤمنين (عبد المؤمن بن علي) وهو من المصامدة والسكنة
 كان ينسب إلى قيس عيلان العدنانية وكان مولده مدينة (تلمسان) من أعمال
 الجزائر سنة ٤٨٧ هـ واستوثق له الأمر بموت (علي بن تاشفين) سلطان المرابطين
 سنة ٥٣٧ هـ فملك المغرب الأقصى والأوسط ، ثم بلاد الأندلس ، وتوفي سنة ٥٥٨ هـ
 وكان عبد المؤمن فصيح النطق جزل اللفاظ محبباً إلى كل من يراه حتى كان
 (ابن تومرت) ينشد كلما رآه :

تكملت فيك أخلاق خصصت بها فكلنا بك مسرور ومفتبط
 السن ضاحكة ، والكف ماحمة والصدر منشرح ، والوجه منبسط
 وكان قد تاقى العلم على (ابن تومرت) ولازمه طويلاً واكتسب منه دهاء
 وفطنة ومعرفة واسعة بطريقة التأثير في السامعين وقد دلت مواقفه على أنه جمع
 بين الفطنة والأدب وحسن السياسة

٢ - دهاؤه وحسن سياسته

يدلنا على دهاؤه وحسن سياسته ما فعله مع أمراء (بجاية) بعد ما أزال ملكهم
 وما فعله مع قبائل (بني هلال بن عامر) الذين أغاروا من الشرق على القيروان
 فماتوا في الأرض فساداً ، وكان الفاطميون بمصر قد خلّوا بينهم وبين بلاد المغرب
 لغرض سياسي^(١)

وذلك أن (عبد المؤمن) لما استقر ملكه بالجزائر ومراكش تطلع إلى مملكة
 الصنهاجيين التي تجاوره من الشرق ، وكان في حوزة بني حماد الصنهاجيين شيعة
 الفاطميين خاصراً (بجاية) واستولى عليها سنة ٥٤٠ هـ وملك قلعة بني حماد المشهورة
 ثم أسر الملك (يحيى بن العزيز المنصور الصنهاجي) وأخذه وأعيان دولته إلى
 مراكش وبالغ في إكرامهم وأتزلهم منزلاً كريماً ، وبهذا قوض ملكهم ، وجعلهم
 جلساء وذوى الصدارة في مجلسه ، فأمن مكرهم وقطع آمالهم في استرداد ملكهم

(١) لا اعرف الصنهاجيون عن مذهب الشيعة واتصلوا بخليفة (بن باد) أغمرى الفاطميون
 بهم بني هلال وكانوا ينزلون صعيد مصر وشرقيها وذلك في منتصف القرن الخامس

أما بنو هلال فقد كانوا يسيطرون بجندهم على القيروان وهم الذين تغلبوا على الملك (تميم بن المزم بن باديس) من بني زيري بن مناد الصنهاجيين^(١) ثم أفلقوا مملكة بني حماد الصنهاجيين أصحاب (بجاية) في غربي القيروان حتى صالحهم ملكها (النصور بن المنتصر) جد يحيى بن العزيز الذي أسره (عبد المؤمن) على أن يكون لهم نصف ما تغله البلاد وأقطع رؤسائهم بعض الجهات في مملكته فلما عزم (عبد المؤمن) على دخول الأندلس بمد اضطراب أحوالها وتطلع الأفرنج إلى فتحها وإغارتهم على بعض جهاتها، أراد أن يتقى شر بني هلال وأن يأمن غاراتهم على بلاده إذا ما شغلته بلاد الأندلس، وأراد في الوقت نفسه أن يعزز جنده بصفوة من بني هلال الذين مارسوا الحروب طويلا، فدعاهم إلى الجهاد والتسير معه إلى بلاد الأندلس ووجه إليهم هذه القصيدة :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل	وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا على الأعداء قومة ثائر	وشدوا على الأعداء شدة صائل
بنى الم من عليا هلال بن عامر	وما جمعت من باسل وابن باسل
تمالوا فقد شدت إلى الغزوة نية	عواقبها موصولة بالأوائل
هي الغزوة الغراء والموعود الذي	تنجز من بمد المدى المتداول
أهبتنا بكم للخير والله حسبتنا	وحسبكم ، والله أعدل عادل
فا ههنا إلا صلاح أموركم	وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
وتسويقكم نعمى ترف ظلالها	عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمه	وللدلج السارى صفاء المناهل

فلما سمعوا منه هذه الدعوة خفوا معه سراعا فجعلهم في جيوشه وعبر بهم الزقاق ، وثم جعلهم جماعات ووزعهم على حصون الأندلس فاستوطنوها ، ثم أمر فيهم ابنه (يوسف) فكثر أعقابهم بالأندلس وفيهم زغبة ورباع وجشم بن بكر

(١) لا ارتحل الفاطميون إلى مصر تركوا على القيروان بني زيري بن مناد الصنهاجي وكانوا شيعتهم وأعوانهم

- وبهذا الأسلوب الحكيم قوى عبد المؤمن جيشه ، واتقى خطر بني هلال على ملكه ؛ فأدرك النابتين في وقت واحد

٣ - عبد المؤمن الخليفة الأريب

لا عجب أن يكون عبد المؤمن بن علي محارباً صليحاً ، فكل شيء حوله يوحى بالشجاعة ويثبت في نفسه حب الحروب وشن الغارات ، ولا عجب أن يكون له ذلك الدهاء العظيم وقد تخرج علي (ابن تومرت) الذي عرفنا من دهائه وعقله ما عرفنا

وإنما قد يبدو عجيباً أن يكون هذا القائد النوار الذي قضى أكثر عمره في الكر والفر ، ونشأ في جو لم تتوطد فيه الثقافة الأدبية ، أدبياً يقول الشعر وينقده . ويزن أقدار الشعراء بميزان دقيق ؛ ولكن لا عجب ؛ فإن اتجاهه الشخصي وملازمته للشيخ (ابن تومرت) جعلاً منه ذلك الشاعر والناقد البصير . فأما شعره فقد روى له صاحب (المعجب في أخبار الأندلس والمغرب) ما وجهه لبني هلال . وأما نقده وإدراكه قيمة الشعر فليس أدل عليهما من إيراد هذه الفقرة من (الكتاب المتقدم) مع تصرف يسير ؛ قال صاحب (المعجب) :

« خرج (عبد المؤمن) يقصد الأندلس ، فسار حتى نزل مدينة (سبّنة) فمهر البحر ونزل بجبل (طارق) وسماه جبل الفتح ، فوفد عليه وجوه الأندلس للبيعة : كأهل مالقة وقرطبة وأشبيلية ، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له فيه وجوه البلاد ورؤسائها ، ودعا هو بالشعراء فاجتمع في مجلسه منهم صفوة من شعراء الجزيرة وغيرهم ، فكان أول من أنشد في مجلسه (أبو عبد الله محمد ابن حبوس) من أهل مدينة (فاس) وكان يجري على نحو طريقة (ابن هاني الأندلسي) في تخير الألفاظ ذات الجلبة فأنشد :

بلغ الزمان بعدكم ما أملأ وتعلمت أيامه أن تعدلا

وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً وجد الهداية صورة تتشكلا

ثم أنشده رجل من سلالة الشاعر الشريف الطليق الرواني فقال :

ما للمدى جنة أوقى من الهرب
وهنا ابتدره (عبد المؤمن) بقوله : إلى أين إلى أين ؟
فقال الشاعر :

أين المفر وخيل الله في الطلب ؟

وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب
حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب
فلما أتم القصيدة قال (عبد المؤمن) : يمثل هذا تمدح الخلفاء !
ثم أنشده شاعر من أهل (أشبيلية) يعرف بابن السيد :

غمض عن الشمس واستقص مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على الجبل !
أنى استقر به ؟ أنى استقل به ؟ أنى رأى شخصه العالى فلم يزل ؟
وهنا قال له (عبد المؤمن) : لقد ثقلنا يا رجل ! وأمر به فأجلس :

ثم أنشده الوزير الكاتب (أبو عبد الله البلنسى) المعروف (بالرصافى) فقال :
لوجئت نار الهدى من جانب الطور قبست ماشئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوابتها ليلاً لساو ولم تشب لمقور
فيضية الفدح من نور النبوة أو نور الهداية تجلو ظلمة الزور
ما زال يقضها التقوى بموقدها صوام هاجرة قوام ديجور
نور طوى الله زند الكون منه على سقط إلى زمن المهدي مذخور
وآية كآية الشمس بين يدي غزو على الملك القيسى منذور
ومنها يصف أسطول (عبد المؤمن) :

لا تسابقن في بحر الرقاق به تركن شطية في شك وتحير
كأنه سالك منه على وشل والأرض من مهج الأسياق مقطور
من السيوف التي ذابت لسطوته وقد رى نار هيجها بتسمير
ذو المنشآت الجواري في أجزئها شكل الغدائر في سدل وتضفير
أعدى المياه وأنفاس الرياح لها ما في سجايها من لين وتعطير
وربما خاضت النيار طائرة بمثل أجنحة الطير الكواسير
كأنما عبرت تحتال عائمة في زاخر من جدى يمناه معصور

حتى رمت جبل الفتحين من كُتَبٍ بساطع من سناه غير مبهور
وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بما تقدم . هذا وقد وجد على ظهر كتاب
(الحماسة) بخط عبد المؤمن بن علي هذان البيتان :

وحكم بالسيف لا تبعاً بماقبة وخلها سيرة تبق على الحقب
فما تنال بغير السيف مرتبة وما ترد صدور الخيل بالكتب
وإذا لم يكونا من كلامه فهما شاهد على حسن ذوقه الأدبي وتأثره في أموره
روح الأدب العربي

وبعد فانا نستطيع أن نعتبر (عبد المؤمن) من الشعراء ذوي البصر بالشعر
ونقدته بعد ما سمعنا من شعره وتعليقاته السريعة الدقيقة على ما قاله أولئك الشعراء
وإذا كان الشيء يُذكر بضده فلا بأس أن أذكر هنا موقفاً لكبير المرابطين
(يوسف بن تاشفين) يظهر لنا الفرق العظيم بينه وبين كبير دولة الموحدين ؟
عاد (يوسف بن تاشفين) إلى بر المدوة (مراكش) من الأندلس بعد
مارد الفريجة في المرة الأولى ، فلما أعاد الفرنج غارتهم عليها استجار به (المتعمد ابن
عباد) كما استجار به أولاً ، فجعل في رسالته لابن تاشفين قول (ابن زيدون) :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لبعدكم أيامنا فندت سوداً ، وكانت بكم أيضاً ليالينا
فلما قرئ عليه الكتاب هز رأسه وقال : يطلب منا جوارى بيضاً وسوداً !!
فلما شرح له بعض من في حضرته معنى البيتين قال : (جديد) . اكتبوا
إليه (إن دموعنا تجري عليه وإن رؤوسنا توجعنا من بعده) !

والآن يصح لنا أن نعتقد أنه لو استراح (عبد المؤمن بن علي) من النزارات
والحروب ، واستقر به الحال طويلاً ، لكانت حياته شعلة تذكى في نفوس الشعراء
والعلماء جذوة العلم والأدب ، وربما كان عصره — لو تحقق له ذلك — في طبقة
عصور الناصر والحكم وابن عباد

ولو لم يكن له إلا تنشئة ابنه (يوسف بن عبد المؤمن) على حب العلم والأدب
حتى رعى الفلاسفة وأبرز للعالم كفاية (ابن رشد) و (ابن طفيل) وغيرها ،
لكان جديراً بهذا وحده أن يعتبر في مقدمة الملوك عناية بالعلم والأدب

٤ - موازنة بين عبد المؤمن بن علي ويوسف بن تاشفين

هذا ولا بأس قبل ختام هذا البحث من عقد موازنة بين كبير المرابطين وكبير الموحدين :

(١) فهما يتفقان فيما يأتي :

١ - كلاهما كبير دولة أفريقية من البربر ، وكلاهما دخل الأندلس مدافعا عن الإسلام .

٢ - كلاهما أزال دولة من الدول الإسلامية ؛ فكبير المرابطين أزال دولة آل عباد بأشبيلية ، وكبير الموحدين أزال دولة بني حماد الصنهاجيين شيعة بني عبيد .

٣ - كلاهما مع ابنه يحقق معنى المثل المشهور (الولد سرأبيه) فأما علي ابن يوسف بن تاشفين فقد لقي الغزالي وكتبه من اضطهاد ما شرحناه ، وأما (يوسف بن عبد المؤمن) فهو العالم الذي شهد له فلاسفة عصره ، وفي عهده نهضت الفلسفة ، وفي رعايته ظهرت كفاية (ابن رشد) فألف كتبه الخالدة في تلخيص آراء أرسطو وشرحها

(ب) ويختلفان فيما يأتي :

١ - كان ملك المرابطين عنيفا مسرفا في النكال عند ما أزال دولة بني عباد ، فانه حملهم أسارى أذلاء وألقى بأمرهم (المعتمد) في غيابات السجون حتى مات ، وعلى العكس منه ملك الموحدين ، فقد كان كريما نبيلاً بعد ما أزال دولة الصنهاجيين فأنزل ملكها وكبراءها منزلاً كريماً بمراكش

٢ - كان كبير المرابطين مغالياً في المحافظة والتحرج ، شديد الوطأة على الفلسفة وأهل الرأي ، أما كبير الموحدين فقد كان عالماً يحب البحث ويرتاح للعلم ويمهد بصفاته وكفايته لظهور الآراء الحرة .

٣ - الفرق بينهما شاسع في الناحية الأدبية ، فأما عبد المؤمن فحسبه قصيدته لبني هلال ونقداته الظريفة لقصائد الشعراء يوم نزل الأندلس ، وأما كبير المرابطين فحسبه مسألة (الجوازي السود والبيض) !

محمود علي البشبيسي